الجامعة المستنصرية
قسم التاريخ
اسم المادة : تاريخ دولة المماليك في مصر .
اسم تدرسي المادة : أ.د. عفاف عبد الجبار عبد الحميد + أ.د. حسين علي قيس .
المرحلة : الرابعة – الدراسة المسائية
العام الدراسي : 2023 – 2024
المحاضرة رقم (6)

سلطنة الناصر محمد الثالثة (709-741هـ/ 1309 - 1340 م)

1- ان السلطان الناصر تولى السلطنة ثلاث مرات وسبق ان ذكرنا سلطنه الاولى ، اما سلطنته الثانية فقد استمرت عشرة سنوات (698 – 708 هـ / 1308 – 1298 م) .

2- واهم ما يميزها ان السلطان الناصر لم يكن له من الامر شي وكانت الدولة بيد كل من بيبرس الجاشنكير و سلار ولما ضاق منهم ومن تحكمهم به اعلن استقالته من السلطنة وخرج من القاهرة متوجها الى الكرك .

3- وبعد أن ساءت احوال مصر قام بعض الامراء واهالي الشام بالطلب من السلطان الناصر العودة للحكم و انقاذ البلاد من الفوضى فخرج الناصر محمد من الكرك قاصدا القاهرة واستقبل في جميع البلاد التي مر بها بالترحاب والسرور.

4- وعندما وصل الى القاهرة دخل قلعة الجبل وتمت مبايعته من قبل الامراء كسلطان لمصر وبذلك بدأت سلطنته الثالثة .

5- وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الامراء الذين أذلوه فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار الى الشام .

6- استحضر الناصر محمد غريمه ليونبه على سوء أفعاله ويذكره بمو اقفه وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله فقتل في حين ألقى الأمير سلار في السجن الى ان مات .

7- وحاول الامير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة تدبير مؤامرة لخلع الناصر محمد و إقامة ابن اخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة .

8- كما حاول المماليك الأشرفية اشعال نار الثورة من جديد ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شؤون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين وزجه في السجن وقلم اظافر المماليك الأشرفية ولم يتساهل مع اي أمير - في مصر او الشام - شك في ولائه واخلاصه له.

9- وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة مما اضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج فكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه وصار جميع عسكر مصر في قبضته .

10- وشاعت موجة الرخاء التي عمت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي اقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانقاوات وسبل وقصور وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام .

11- وقد وصف المقريزي السلطان الناصر محمد بأنه كان محبا للعمارة انه كان ينفق في كل يوم على العمارة سبعة آلاف درهم فضة أي اكثر من ثلثمائة وخمسين دينار وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الاسعار في ذلك العصر.

12- هذا كله بالاضافة الى نضوج النظم المماليكية في عصر السلطان الناصر محمد فاستقرت دواوين الحكومة واستجدت كثير من التطورات في نظم الحكم والغيت بعض الوظائف الكبرى - مثل وظيفة نائب السلطنة.

13- ووظيفة الوزير – واستحدثت بدلها وظائف اخرى مثل وظيفة ناظر الخاص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتنظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق الانتعاش الاقتصادي .

14- استعان السلطان محمد بن قلاون بمجموعة طيبة من امرائه المخلصين غير انه يبدوا ان الناصر محمد كانت لديه دائما عقدة من ناحية الامراء فضلت علاقته تتصف بالشك والريبة .

15- واشتهر عنه في التاريخ انه كان يقرب الامير منه ويزيد من القابه ويضفي عليه الكثير من الوان التشريف .

16- حتى اذا ما احس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص بطريقة أو أخرى.

17- وهي السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الامراء بوضوح في علاقته بالأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري الذي ولاه الناصر نيابة الشام ثم غدر به بعد قليل وفي علاقته بالأمير تنكز الحسامي الناصري الذي ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد في القابه الكثير وصاهره ، ثم ابعده عن مناصبه وتخلص منه في نهاية الأمر.

عصر اولاد الناصر محمد (741 – 763 هـ / 1240 – 1361 م)

1- لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاون من شاكلة اولئك السلاطين الذين نسمع عنهم في عصر المماليك والذين حكم الواحد منهم عاما أو بضعة اعوام .

2- استطاع الناصر محمد ان يحتفظ بالحكم سنين طويلة مما مكن لأولاده واحفاده في قلوب الناس .

3- ثم ان الظروف التي احاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتوليه الحكم على ثلاث دفعات وما انتاب البلاد والعباد اثناء الفترات التي اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص في الاموال والاقوات .

4- كل ذلك جعل المعاصرين يزدادون تعلقا بالناصر محمد وبيت قلاون ويون في بقائهم في الحكم ضمانا كافيا للاستقرار والرخاء ولعل هذا هو السر في بقاء السلطنة سنين طويلة في ذرية الناصر محمد – من اولاده واحفاده - وهو امر ليس له شبيه في تاريخ سلطنة المماليك.

5- وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة 741هـ/ 1340 م دخلت دولة المماليك في مرحلة جديدة في تاريخها ، يمكن تسميتها عصر ابناء الناصر محمد واحفاده .

6- أهم ما يلاحظ على هذه المرحلة التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية او الشراكسة 785 هـ / 1383 م هو ازدياد نفوذ الامراء وتعاقب عدد كبير من ابناء السلطان محمد ثم احفاده في مناصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغارا أو احداثا مما جعلهم العوبة في أيدي كبار الامراء.

7- أما ابناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالي من بعده فعددهم ثمانية حكموا احدى وعشرين سنة (741 – 763 هـ / 1340 – 1361 م) وبذلك يكون متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريبا مما يشهد على مدى عدم الاستقرار الذي شهدته البلاد في ذلك العصر.

ابناء الناصر بن قلاون

اولا : السلطان محمد السلطان سيف الدين أبو بكر الذي تلقب بالمنصور (748 – 742 هـ / 1340 – 1241 م) .

ثانيا : السلطان الناصر حسن (748 – 752 هـ / 1347 – 1351 م)

- الذي ولي السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من اخوته اذ تولى السلطنة وهو في الحادية عشرة من عمره
- فضل العوبة في يد كبار الامراء الذين رتبوا المصروف اليومي للسلطان بحيث لا يتعداه ولم يسمع بمثل ذلك ان يكون ملك يجلس على تخت الملك.
- ويصرف الامور بالعزل والولاية وتحمل اليه أموال مصر والشام ولا يتصرف منها في شيء وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والامراء ، لم يصعب على الامراء القاء القبض على السلطان وحبسه .

ثالثا : الصالح صلاح الدين بدله سلطان (752 – 755 هـ / 1351 – 1354 م)

- وقد وصف المؤرخ ابو المحاسن السلطان الصالح بانه لم يكن له في سلطنته الا مجرد الاسم فقط لغلبة الامراء شيخون وطاز وصرغتمش على الامر ، لانهم كانوا هم حل المملكة وعقدها واليهم أمورها لا لغيرهم)) .
- وسرعان ما انتهى امر السلطان الصالح الى العزل والحبس بالقلعة .

رابعا : السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية اكثر من ست سنوات (755 – 761 هـ / 1354 – 1360 م)

- باشر الحكم بنفسه لانه كان قد بلغ سن الرشد وقد اجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فكان محبا للرعية ، وفيه لين جانب ، حمدت جميع خصاله .
- اهتم بالعمارة و انشأ كثيرا من المباني الفاخرة ومع ذلك فان الناصر حسن لم يتخلص من تدخل كبار الامراء في شؤونه وبطشهم به .
- حتى انتهى الامر بان قبض عليه الامير يلبغا. وقد اختلفت الاقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب ان مماليك يلبغا قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض .

الوباء الاسود

1- ومن هذه الصور القائمة التي يرسمها التاريخ لعصر ابناء الناصر محمد يتضح لنا ان البلاد غدت نهبا لمجموعة من امراء المماليك يتلاعبون بالسلاطين الاحداث حسبما يحلو لهم .

2- اما عامة الاهالي في مصر فكانوا يقفون غالبا موقف المتفرج يبكون لمقتل سلطان ليقيموا الافراح والزينات للسلطان الجديد .

3- وهكذا عاش عامة أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة بين تيارات داخلية متضاربة ومؤامرات بين الامراء متعاقبة .

4- وليس هناك ما يستحق الاشارة في تلك الفترة بالنسبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار الوباء الاسود في انحاء الدولة سنة (749 هـ /1349 م) .

5- والمعروف ان العالم - مشرقه ومغربه – شهد في العصور الوسطى كثيرا من الازمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعجز الانسان عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولانتشار الجهل وضعف وسائل العناية الصحية من ناحية أخرى .

6- على ان وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين مثلما استأثر الوباء الاسود ، نظرا لقسوته وخطورة نتائجه و اتساع انتشاره في بلاد الشرق والغرب جميعا . ويصف المؤرخ المقريزي كيفية انتشار هذا الوباء فيقول ما نصه " ولم يكن هذا الوباء كما عهد في اقليم دون اقليم ، بل عم اقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، جميع اجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر "

7- ثم يشرح بعد ذلك كيف اصيبت بلاد المغول بالوباء الاسود حتى " ماتت خيولهم وصاروا كلهم جيفا مرمية ثم اخذ الوباء يزحف شرقا عن طريق بلاد المغول وغربا عن طريق القسطنطينية حتى وصل الى الشام ومنها الى مصر أما أعراض ذلك الوباء فكانت ظهور خراج صغير خلف اذن الانسان وتحت ابطه ، ولا يلبث بعد ذلك ان يبصق المصاب دما ثم يموت بعد عدة ساعات " .

8- وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشارا فتاكا فصار الناس يموتون كل يوم بالآلاف وغدت الارض لا يوجد من يزرعها ((وزهد ارباب الاموال في اموالهم وبذلوها للفقراء)).

9- وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن الأولى فبادر السلطان والأمراء الى النجاة بانفسهم وخرجوا الى جهة سرياقوس ولا تخفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء اذ افتقرت الأرض لعدم وجود من يفلحها من البائعين والمشترين و انحلت اقطاعات كثيرة لوفاة اصحابها وتوقفت الاحوال بالقاهرة ومصر ... و ابطل كثير من الناس صناعاتهم و انتدبوا للقراءة امام الجنائز... وبطلت الافراح والاعراس بين الناس .

عصر أحفاد الناصر محمد (763 هـ – 784 هـ / 1361 – 1383 م)

1- لم يكد الأمير يلبغا بعزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي ابن الناصر محمد سلطانا سنة 1361 .

2- وبذلك بدأ عصر احفاد الناصر محمد وهم اربعة تعاقبوا في منصب السلطنة بين سنتي 1361 – 1383 ولم يختلف عصر احفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة التي يمكن تلخيصها فيمايلي :

- صغر سن السلاطين الذين تعاقبوا على دست السلطنة وهي الحقيقة التي تتضح اذا عرفنا ان السلطان المنصور صلاح الدين محمد (763 – 765 هـ / 1361 – 1363 م) تولى السلطنة وسنه 14 سنة .
- السلطان الاشرف زين الدين ابو المعالي شعبان (765 – 778 هـ / 1363 – 1376 م) تولى السلطنة وسنه ست سنوات
- السلطان الصالح زين الدين امير حاج (783 – 784 هـ / 1381 – 1382 م) تولى السلطنة وسنه احدى عشر.

نتائج حكم أحفاد الناصر محمد

1. صغر سن السلاطين هي ازدياد نفوذ كبار الامراء واشتداد سطوتهم وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد وتلاعبهم بالسلاطين الصغار- اما بالعزل او بالتعيين – وفق اهوائهم .
2. اشتد الصراع بين كبار الامراء بعضهم وبعض وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعا احزابا يتقاتلون في شوارع القاهرة بين حين وآخر مما اغرق البلاد في حالة شديدة من الفوضي .
3. زداد نفوذ طائفة المماليك البرجية او الجراكسة ازديادا مضطردا .
4. ان طائفة البرجية هي التي استطاعت ان تكسب الجولة النهائية في الصراع الذي حتدم بين طوائف المماليك حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة (784 هـ 1382 م)
5. تأسيس دولة المماليك البرجية و الجراكسة وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية و انتهت اسرة قلاون
6. اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر- عصر احفاد الناصر محمد – بشكل واضح ، وكان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاء فاشتهر بعض سلاطين ذلك العصر بالادمان في شرب الخمر.

حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365 م

1- عندما ابتليت البلاد في عصر اولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الاسود – فان عصر احفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خربت الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365م ، وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الاخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

2- والو اقع ان الحروب الصليبية لم تنته بطرد الصليبيين نهائيا من الشام سنة 690 هـ / 1291 م و انما استمرت ذيول تلك الحروب امدا طويلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

3- وفي ذلك الدور الختامي من ادوار الحروب الصليبية استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في تلقي الضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الاسلامي في الشرق الادنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في الثأر من المعتدين وتأديبهم من ناحية ثالثة .

4- كان لطرد الصليبيين كلية من بلاد الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي فنادى المتحمسون للحروب الصليبية - وعلى رأسهم البابوية – بأن دولة المماليك هي السبب و انه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام الا باضعاف - دولة المماليك أولا.

5- ولما كان معروفا أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى اصحاب المشاريع الصليبية في القرن الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطيء مصر والشام لمنع التجار الاوربيين من الوصول بسفنهم اليها والمتاجرة مع دولة المماليك فتصاب تجارة دولة المماليك بالكساد والبور وبالتالي يفقدون الأساس الأول لثروتهم وقوتهم.

6- وقد اصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب بسفنهم الى شواطيء دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين ولكن كثيرا من التجار الايطاليين بصفة خاصة رفضوا الأوامر البابوية حرصا على مصالحهم الاقتصادية .

7- ومن ثم لم يعد هناك مفر امام البابوية من انشاء قوة بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط تتصيد ذلك النفر من التجار الاوربيين الذين استمروا يغذون دولة المماليك باموالهم ، ضاربين عرض الحائط بنداءات البابوية وأوامرها .

8- ولم يكن هناك في شرق حوض البحر المتوسط افضل من جزيرة قبرص يتخذها الغرب الاوربي مركزا لمراقبة الشواطيء الاسلامية في مصر والشام من جهة .

9- ولضرب المسلمين وشن الغارات على موانئهم من جهة أخرى. والمعروف ان جزيرة قبرص دخاة دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر عندما استولى عليها ريتشاد قلب الاسد في الحملة الصليبية الثالثة .

10- ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرص – تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان - تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق حوض البحر المتوسط .

11- وهو الدور الذي ازداد قوه و بروزا عقب طرد الصليبيين من الشام في اواخر القرن الثالث عشر ، اذ غدت قبرص منذئذ اكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط .

12- ذلك ان ملوك قبرص من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزا لتهديد التجارة المماليكية عن طريق ايواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانيء الاسلامية من ناحية .

13- فرض رقابة على السفن الاوربية لمنعها من الوصول من موانيء مصر والشام من ناحية اخرى ولم يكتف ملوك قبرص من آل لوزجنان بكل ذلك .

14- و انما شرعوا يهاجموا بانفسهم المسلمين حيثما وجدوهم في آسيا الصغرى والشام ومصر وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى .

15- ومن ابرز الهجمات الصليبية التي شنها ملوك قبرص على بلاد الاسلام في القرن الرابع عشر ، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الاول لوزجنان ضد مدينة الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365 م .

16- وقد مهد الملك بطرس لحملته برحلة واسعة زار فيها كثيرا من بلدان الغرب الاوربي فضلا عن البابوية وحصل على مساعدات وامدادات تمهيدا لاختيار اصلح نقطة في دولة المماليك يمكن ان يوجه اليها الصليبيون ضربتهم .

17- وكان ان اشار احد الصليبيين على ملك قبرص بان تتجه الحملة ضد الاسكندرية على ان يهاجمها الصليبيون يوم جمعة والمسلمون في المساجد.

18- وكان ان وصلت السفن الصليبية البالاسكندرية بقيادة بطرس لوزجنان ملك قبرص في سنة 767 هـ / 1365 م في وقت كانت دولة المماليك تعاني خللا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر – هو السلطان الاشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون - ووصي وجائر متغطرس عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكي .

19- هذا في حين كان نائب الاسكندرية ، وهو الامير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا في اداء فريضة الحج . وفي مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين انزال قواتهم في شوارع المدينة يحرقون المساجد ويخربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والاطفال والشيوخ وينهبون كل ما وصلت اليه ايديهم من بضائع واموال.

20- وهكذا قضى الصليبيون في الاسكندرية نحو ثلاثة ايام كانت من أسود الايام في تاريخ الثغر، ولم يغادروها الى سفنهم الا بعد ان احسوا بقرب جيوش المماليك التي اسرعت من القاهرة لانقاذ الاسكندرية. ويقال ان السفن الصليبية حملت معها عند رحيلها خمسة آلاف أسير منهم المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية .

21- هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون الى القاء بعض حمولتها في البحر لتخف من كثرة الوسق واخيرا وصل يلبغا الخاصكي الى الاسكندرية في جند كثيف بعد ان اخلاها الصليبيون .

22- فشهد ما حل بها من دماروخراب ورأى جثث القتلى وقد انتفخت وجافت فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما خرب وأحرق. وقد عاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرص سرعة جلائه وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه دخلها لصا وخرج منها لصا .

23- ثم ان بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالاسكندرية و انما اغار على طرابلس بالشام سنة 769 هـ / 1367 م وان كانت تلك الاغارة قد منيت بالفشل وهكذا تكرر عدوان الصليبيين على موانيء مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك في عصر احفاد الناصر محمد بن قلاون وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تذود عن البلاد وتثأر للعباد .

==========